الخطبة الثانية والثلاثون

إن تصدق الله يَصدُقك

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، حمداً كثيراً طيباً ملء السموات والأرض وملء ما بينهما، وملء ما شئت يا رب العالمين، اللهم لك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد كله، والشكر كله، والثناء الجميل يا إله العالمين، أما بعد:

عندما نقرأ القرآن هل نعرض أنفسنا على القرآن فنقول في أنفسنا: أين نحن من هذه الآية؟ أين نحن من قوله تعالى هذا؟ أين نحن من أمر الله تعالى الذي جاء في هذه الآية؟ مثال ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: 9/ 119].

هذا خطاب للمؤمنين، أين أنا من هذا الخطاب؟ هل أتحلى بصفات المؤمنين؟ ولكي أجيب على هذا السؤال يجب أن أعلم أو أتعلم صفات المؤمنين حتى أعرض نفسي عليها، وأرى إن كنت منهم أو أني لست منهم، فإذا كنت منهم فإن الله يأمرني بالتقوى، وحتى أطبق التقوى وألزم نفسي بها وبأركانها وصفاتها، لا بد لي أن أفهم وأعلم: ما هي التقوى؟ وما خصائصها؟ وما الذي يجب علي فعله حتى أكون من المتقين؟ ثم بعد ذلك يأمرني ربي أن أكون مع الصادقين، وقوله تعالى: ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي: كونوا منهم، أي: كونوا من الصادقين، وكونوا منهم وممن يتحلى بصفاتهم وأخلاقهم، وقال بعض أهل العلم: وكونوا مع الصادقين: إلى جانب أن تكون منهم وتكون أنت من الصادقين أيضاً: يجب أن تنصر الصادقين وتؤيدهم في

صدقهم وتقف معهم وتناصرهم، ويجب أن أكون أنا من جماعتهم وممن يناصرهم ويقف معهم وفي صفهم، ففهم معنى المعية، -المعية الكاملة-: أن أشاركهم في صفاتهم، وأكون معهم أدافع عنهم أؤيدهم وأنصرهم، فهل أنا هكذا؟ في تدبري للقرآن الكريم؟ هل أنا أتمثل أياته في نفسي؟ هل أعرض نفسي وأعمالي على هذه الآيات وأنظر أين أنا منها؟ وأين تقصيري؟ وما الذي يجب علي أن أفعله؟ اللهم وفقني لأن أكون من هؤلاء، اللهم اجعل عملي موافقًا لقولي واجعلني كما تحب وترضى، اللهم آمين.

هل أنا صادق سراً وعلانية، ظاهراً وباطنًا، حقيقة؟ هل أنا أخاف الله تعالى وأخاف عذابه وأريد مرضاته سبحانه وأريد جنته؟ أم أن الدنيا قد أغرقتني بشهواتها وزينتها وكذبها، وكل ما يهمني هو التحصيل الدنيوي؟ إن الله سبحانه وتعالى قد لخص الأمر كله في ست كلمات فقال سبحانه: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ [محمد: 47/ 21]، لو صدقت في نيتك، في عملك، في قولك لله تعالى وفي سبيل الله وعلى أمر الله تعالى ونهج رسول الله ﷺ لكان خيراً لك من الدنيا وما فيها وأضعاف أضعافها، قال عليه الصلاة والسلام فيما رواه سهل بن سعد الساعدي: «مَوضِعُ سَوْط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما عليها» البخاري (2735).

وفي غزوة خيبر أعطى رسول الله ﷺ أعرابيًا من الغنائم فقال الأعرابي: «ما على هذا اتبعتك يا رسول الله! ولكن اتبعتك على أن أُرْمى ها هنا -وأشار إلى حلقه- فأموت فأدخل الجنة»، فقال عليه الصلاة والسلام: «إن تَصْدُق الله يَصْدُقْكَ»، ثم نهض الأعرابي إلى قتال العدو، فأُتي به وهو مقتول، فقال عليه الصلاة والسلام: «أهو هو؟» قالوا: نعم يا رسول الله، فقال ﷺ: «صدق الله فَصَدَّقَه»، فكفنه رسول الله ﷺ في جُبته ثم دعا له فقال: «اللهم هذا عبدك خرج مهاجراً في سبيلك، قُتِل شهيداً وأنا على ذلك شهيد» السلسلة الصحيحة - وصحيح الترغيب والترهيب.

قال ﷺ: «إن أول الناس يدخل النار يوم القيامة ثلاثة نفر: يؤتى بالرجل فيقول : رب علمتني الكتاب فقرأته آناء الليل والنهار رجاء ثوابك، فيقال: كذبت، إنما كنت تصلي ليقال : إنك قارئ مصل، وقد قيل، اذهبوا به إلى النار، ثم يؤتى بآخر، فيقول: رب رزقتني مالاً فوصلت به الرحم، وتصدقت به على المساكين، وحملت به ابن السبيل رجاء ثوابك وجنتك، فيقال: كذبت، إنما كنت تتصدق وتصلي ليقال: إنه سمح جواد، وقد قيل، اذهبوا به إلى النار، ثم يجاء بالثالث فيقول : رب خرجت في سبيلك، فقاتلت فيك حتى قتلت مقبلاً غير مدبر، رجاء ثوابك وجنتك، فيقال : كذبت، إنما كنت تقاتل ليقال : إنك جريء شجاع وقد قيل، اذهبوا به إلى النار» ك عن أبي هريرة.

وفي صحيح السيرة أيضـًا أن أنس بن النضر رضي الله عنه كان يأسف أسفـًا شديداً لعدم شهوده بدراً، فقال: والله لئن أراني الله مشهداً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ليرين الله كيف أصنع، وصدق في وعده مع الله، فلما كان يوم أحد مرّ على قوم أذهلتهم شائعة موت النبي ﷺ، وألقوا بسلاحهم، فقال: ما يجلسكم؟ قالوا: قُتل رسول الله ﷺ! فقال: يا قوم إن كان رسول الله ﷺ قد قُتل فإن رب محمد حي لا يموت! قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله»، وقال: اللهم إني أعتذر إليك مما قال هؤلاء، ثم لقي سعد بن معاذ فقال: يا سعد، إني لأجد ريح الجنة دون أحد»، ثم ألقى بنفسه في صف المشركين، وما زال يقاتل حتى استشهد، فوجد فيه بضع وثمانون ما بين ضربة بسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم، فلم تعرفه إلا أخته ببنانه، وفي أمثاله نزل قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: 33/ 23]، م – ت – ن.

لذلك مدحهم الله سبحانه وتعالى فقال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 9/ 100]، وقال سبحانه:

﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: 33/ 24].

وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ﴾ [الأحزاب: 33/ 23]، فالرجل هو من كَمُلت إنسانيته ومن كَمُلَ إيمانه وتصديقه بالله تعالى وثقته بالله تعالى واعتماده على الله تعالى، و كَمُلت طاعته لله تعالى، والرجل هو من تحرّر عقله من الضلال والكفر والشرك، وطَهُر قلبه من النفاق والشك والريبة والزيغ، فالرجل ذكر وليس كل ذكر رجل، ولما ذكر الله تعالى الرجال في القرآن وصفهم بالرجال لإيمانهم وقوة طاعتهم فقال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور: 24/ 36 - 38].

فذكر الله صفات الرجال: 1 - لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، 2 - إقامة الصلاة، 3 - إيتاء الزكاة، 4 - الخوف من الآخرة، 5 - الصدق مع الله تعالى، 6 - الثبات على دين الله وطاعته، 7 - ومن وراء هذا كله: الإخلاص مع الله تعالى في الأقوال والأعمال والنيات، 8 - والرجل يصدح بالحق، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [غافر: 40/ 28]، 9 - والرجل يدافع عن المؤمنين ويحميهم وينصح إخوانه في سبيل الله، قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [القصص: 28/ 20].

10 - لذلك جمع الله صفات الرجولة كلها فجعلها في الأنبياء والمرسلين، فقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم﴾ [يوسف: 12/ 109].

فالرجولة ليست بالضخامة ولا القسوة ولا الفظاظة، وإنما بالتقى والرحمة والطاعة، صعد ابن مسعود رضي الله عنه على نخلة ليأتي ببلح إلى رسول الله ﷺ

فضحك الصحابة لمّا رأوا دقة ساقيه فقال عليه الصلاة والسلام: «أتعجبون من دقة ساقيه؟ إنهما أثقل في الميزان من جبل أحد» رواه أحمد وابن حبان.

وعن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما الناس كالإبل المئة، لا تكاد تجد فيها راحلة» البخاري (6498) – مسلم (2547)، قال الحافظ ابن حجر: أي أنك لا تجد في مئة من الناس من يصلح للصحبة بأن يكون معيناً لأخيه ناصحاً له يدخل السرور على قلبه.

وقال الخطابي: إن أكثر الناس أهل نقص، وأهل الفضل والكرم والجود والأثرة فهم قليل، كمنزلة الراحلة في الإبل، وقال باستشهاد قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف: 12/ 40]: فالزاهد في الدنيا الراغب في الآخرة، الذي يساعد الآخرين ويحمل أثقالهم ومشاقهم، ويقوم على رعايتهم ويكشف كربهم، ويعينهم على النوائب والكربات هم قليل كقلة الراحلة، وهذا هو الأخ الصادق الصدوق، الرجل الحق، وقيل بأن الله تعالى قال: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِ﴾ [الأحزاب: 33/ 23].

أعطى الصفة الرئيسية للرجل وهي الصدق، الصدق بكافة أشكاله وأنواعه، وقيل: إن الصديق هو الذي يُصَدِّقُك ويَصْدُقُكَ، ناصح أمين لا يغش، يرعى أحوالك ويحرص على سلامتك، ولمّا كان الرجل يصدق مع الله تعالى فهذا كناية عن الإيمان والخوف من الله تعالى، ومعناه سلامة في الفكر فلا ضلال ولا شرك ولا انحراف، ومعناه سلامة في القلب فلا غش ولا خداع ولا حسد ولا غل، ومعناه سلامة في القول والعمل لأنهما تبع للفكر وللقلب فهذا هو الرجل، ولما كان سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع الصحابة الكرام رضوان الله عليهم قال لهم: تَمَنَّوا؛ فقال أحدهم: أتمنى لو أن هذه الدار مملوءة ذهباً أنفقه في سبيل الله تعالى، ثم قال عمر: تَمَنَّوا؛ فقال آخر: أتمنى لو أنها مملوءة لؤلؤاً وزبرجداً وجوهراً أنفقه في سبيل الله وأتصدق به، ثم قال سيدنا عمر: تَمَنَّوا، فقالوا: ما ندري ما نقول يا أمير المؤمنين! فقال عمر: ولكني

أتمنى رجالاً مثل أبي عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل، وسالم مولى أبي حذيفة، أستعين بهم على إعلاء كلمة الله سبحانه. لقد علم أمير المؤمنين أن الذهب والمال لا يفيد إلا إذا وقع في يد رجل يريد به إعلاء كلمة (لا إله إلا الله)، يرعى فيها حق الله وحق العباد، إن القوة قوة الإيمان والثقة بالله والتوكل على الله، القوة والرجولة في الاستقامة على منهج الله تعالى ابتغاء مرضاته وخوفًا من عقابه.

عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: مر رجل على رسول الله ﷺ فقال لرجل جالس عنده: «ما رأيك في هذا؟» فقال: رجل من الأشراف، هذا والله حريٌّ إن خطب أن يُنكح، وإن شفع يُشَفَّع، قال: فسكت رسول الله ﷺ، ثم مر رجل آخر فقال رسول الله ﷺ: «ما رأيك في هذا؟» قال: يا رسول الله هذا رجل من فقراء المسلمين هذا حريٌّ إن خطب ألا يُنكح، وإن شفع ألا يُشَفَّع، وإن قال أن لا يُسمع لقوله، فقال عليه الصلاة والسلام: «هذا خير من ملء الأرض من مثل هذا» البخاري (6447).

فأساس الرجولة:

1 - الصدق مع الله تعالى.

2 - الثبات، على شريعة الله تعالى: ﴿وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: 33/ 23].

3 - الطهارة طهارة العقل والفكر من الشرك والنفاق، طهارة القلب من الأمراض، طهارة الأعمال والأفعال، طهارة البدن، طهارة المطعم والملبس، قال تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: 9/ 108].

4 - حب الطاعة وحب العبادة، وحب القُرب من الله تعالى، قال تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [النور: 24/ 37].

5 - الخوف من حول المطلع، والخوف من الوقوف بين يدي الله، قال تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [النور: 24/ 37].

6 – التسبيح والذكر آناء الليل وأطراف النهار، قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ [النور: 24/ 36].

7 – والإخلاص من أهم أبواب الصدق مع الله تعالى لأنه سبحانه لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصاً لوجهه تعالى وعلى نهج وسنة نبيه عليه أفضل الصلاة والسلام.

قال ﷺ: «ثلاث أقسم عليهن: ما نقص مال عبد من صدقة، ولا ظلم عبد مظلمة صبر عليها إلا زاده الله عز وجل عزّاً، ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر، وأحدثكم حديثاً فاحفظوه: إنما الدنيا لأربعة نفر: عبد رزقه الله مالاً وعلماً فهو يتقي فيه ربه، ويصل فيه رحمه، ويعلم لله فيه حقّاً فهذا بأفضل المنازل، وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً فهو صادق النية يقول: لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان، فهو بنيته وأجرهما سواء، وعبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً يخبط في ماله بغير علم، لا يتقي فيه ربه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعلم لله فيه حقاً، فهذا بأخبث المنازل، وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علماً فهو يقول: لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيّته فوزرهما سواء» حم – ت عن أبي كبشة الأنماري.

أعود فأذكر نفسي بقول رسول الله ﷺ للرجل الذي رفض حصته من الغنائم في غزوة خيبر، وقال له رسول الله ﷺ: «إن تَصْدُق الله يَصْدُقْكَ»؛ فهل أنا صادق مع الله حقيقة؟ فكر فيها يا عبد الله فالأمر جِدٌّ وليس بالهزل، إنها جنة أو نار، وأريد أن أقص عليك قصة عمر بن الخطاب عندما حج ووقف بالأبطح يدعو ربه رافعاً بيديه ويقول: اللهم انتشرت رعيتي، ورق عظمي، ودنا أجلي، فاقبضني إليك غير مفرط ولا مفتون، اللهم إني أسألك الشهادة في سبيلك وموتة في بلد رسولك، فقال له الصحابة: يا أمير المؤمنين إن من يطلب الشهادة يخرج إلى الثغور! فقال: هكذا سألت ربي، وأسأل الله أن يلبي لي ما سألت، وقالت ابنته حفصة: يا أمير المؤمنين إن المدينة عزيزة آمنة فكيف تُقتَل بها؟! قال لها: إذا أراد الله شيئاً أنفذه، ورجع المدينة من حجه، وفي صلاة الفجر وهو أمير المؤمنين وإمامهم، وفي مسجد رسول الله ﷺ،

وفي محراب رسول الله ﷺ، وبين صحابة رسول الله ﷺ، وفي الركعة الثانية يطعنه أبو لؤلؤة المجوسي فيسقط على الأرض وهو يقول رضي الله عنه: حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم. إن تَصْدُق الله يَصْدُقْكَ.

ولمّا حاصر خالد بن الوليد الحيرة، طلب من أبي بكر رضي الله عنه المدد، فأمده بالقعقاع بن عمرو التميمي، وقال أبو بكر رضي الله عنه: لصوت القعقاع في الجيش خير من ألف مقاتل.

ولما طلب عمرو بن العاص المدد في فتح مصر بعث له عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال: أمددتك بأربعة آلاف رجل: الزبير بن العوام، المقداد بن عمرو، عبادة بن الصامت، ومسلمة بن مخلد رضي الله عنهم وأرضاهم، هؤلاء الرجال، فَهلا علّمنا أولادنا سيرهم وقصصهم؟ وعلمناهم أن الرجال بأفعالهم وليس بأجسامهم وعضلاتهم؟ فهذا ابن مسعود رضي الله عنه، الضعيف النحيل الذي كان يرعى الغنم، وكان يربط نفسه بالحبل مع غنمه حتى لا تهب الريح فتقذفه بعيداً، هذا النحيف الضعيف الذي صعد نخلة ليأتي بالرطب لرسول الله ﷺ، فرأى الصحابة دقة ساقيه فضحكوا من صغر ونحولة ساقيه، فقال عليه الصلاة والسلام: «لهما أثقل في الميزان من أُحُد» أي: من جبل أحد، هذا الضعيف الذي ليس له قبيلة ولا عشيرة تحميه، تحدى قريش بأكملها وفي مكان تجمعها عند الكعبة، وعند ازدحامها بالرؤساء والأشراف وأبطال قريش فقام عند المقام في الكعبة وبأعلى صوته قرأ القرآن، وقرأ سورة الرحمن، لا يخاف أحداً إلا الله، وما همُّه إلا مرضاة الله، والصدح بالقرآن، وهبت قريش لهذا التحدي برجالها وصناديدها على هذا الضعيف ونزلت به ضرباً بكل ما أوتوا من قوة حتى كاد أن يموت، فهل عرفت معنى أن يكون المرء رجلاً؟

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ...

والصلاة والسلام على سيد المرسلين ... آمين